هندسة المكان و دلالاته من منظور سيميائي رواية شيكاغو لعلاء الأسواني أنموذجا

The formation of place and it's significations from a semiotic Perspective, Alaa Al Aswani's " Chicago" Novel as a Model

ط د: عبد الباقي عطاالله*

ط د: الذيب حامة♣

تاريخ الإرسال: 25 / 01 / 2021	تاريخ القبول: 18 / 08 / 2021	تاريخ النشر: 20 / 12 / 2021

الملخص:

للمكان حضوره وتسلطه في الخطاب السردي المعاصر، لما يحمله من زخم دلالي وتمثيل ثقافي، فهو عنصر دينامي ضام لباقي العناصر السردية من أحداث، وزمن، وشخصيات وبما أنّه الإطار الذي تقع فيه الأحداث فهو يحمل شحنات رمزية، وعلامات سيميائية تضفي نوعا من التشويق والفنية في عالم السرد، وتحتاج إلى كفاءة قرائية لفك تشفيرها كما تتعدد هذه الدلالات بتعدد تمايز الأمكنة، وتمثيلاتها الثقافية.

الكلمات المفتاحية: السيمياء السردية، الدلالة،البنية المكانية،رواية شيكاغو.

Abstract:

The place has its presence and authority in contemporary narrative discourse, because of its semantic momentum and cultural representation as including events, time, and characters. Since it is the framework in which the

المؤلف المرسل: عبد الباقي عطاالله a.atallah@univ-setif.dz

*جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 مخبر مناهج النقد و تحليل الخطاب 2 atallahabdelbaqi@gmail.com

♣ جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 مخبر مناهج النقد و تحليل الخطاب dibhama@gmail.com

events take place, it carries symbolic charges, and semiotic signs that give a kind of suspense and art in the world of narration, and it needs a reading competence to decode it, just as these semantics multiply according to the multiple differentiation of places and their cultural representations.
Keywords : *Narrative Semiotic- Indication - Spatial Structure- Perspective The Chicago.*

*** *** ***

مقدمة:

يرى بعض الباحثين أن العمل الروائي حين يفتقد إلى البنى المكانية، فإنه يفتقد خصوصيته وأصالته،على غرار "يوري لوتمان" في كتابه " مشكلة المكان الفني" رغم ما ضل شائعا لفترة طويلة في المقاربات النقدية من انصباب الاهتمام في مقاربات الأعمال السردية على عناصر الشخصيات والحدث والزمان، واعتبار الرواية فنا زمنيا خالصا، فإن الجدير بالملاحظة هو تزايد الاهتمام بالبنية المكانية وما يتعلق بجمالياتها، و هندستها المعمارية التي تحمل الكثير من الدلالات السيميائية، فقد تربع المكان على عرش الدراسات النقدية المعاصرة، واكتسب أهميته المثلى في العمل السردي، ليس فقط بحكم كونه أحد العناصر الفنية الرئيسية في العمل السردي، بل لأنه يتحول في العمل الروائي المتميز إلى فضاء يحوي كل عناصر ذلك العمل وفق العلاقات القائمة فيما بينها، كما يمنح الشخصيات حرية التحرك والتفاعل لتعبر عن وجهة نظرها.

و انطلاقا من هذه الأهمية يتحول المكان من مجرد عنصر من عناصر السرد إلى هدف في العمل كله، كما يستمد دوره البالغ الأهمية من الواقع الإنساني، للارتباط الوثيق بينه والإنسان.

إن القراءة السيميائية للبنية المكانية تنطلق من الكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكم مجموعة علاماتها و تمفصلاتها داخل التركيب المكاني، والتعامل مع علامات الفضاء الروائي انطلاقا من العلامة اللسانية، فهو فضاء لفظي بامتياز، لذلك فإن التحليل الواعي للبنية المكانية ينطلق عادة من الوحدات اللسانية، وصولا إلى الوحدات البنائية للمكان ونسق انتظامها داخل المتخيل السردي.

من هذا المنطلق نطرح جملة من التساؤلات تحدد عمق الإشكالية المطروحة:

- ما هي البنية المكانية وما دلالاتها السيميائية في الرواية؟ وكيف تمظهر المكان داخل المتن الروائي؟ هل يقف مفهوم المكان عند حدوده المعروفة؟ أم تتعدد رموزه بتعدد القراءات؟ كيف تؤثر البنى المكانية في أفعال الشخصيات؟

2- أهمية المكان في البناء السردي

يلعب المكان أهمية كبرى في الدلالات السردية وذلك لكونه أحد الدعامات الأساسية في البناء السردي (الزمان، المكان، الشخصيات)، فالحركية الفعلية للشخصية لا تؤدي دورها بإحكام ما لم يتم ضبط البنية المكانية التي تتحرك فيها الأحداث عبر وسيط الزمن، فما هو المكان؟ المكان هو الحيز، والفضاء، والموقع، وقد جاء في قاموس تاج العروس: "المكان الموضع كالمكانة، ومنه قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما آستطاعوا مضيًا ولا يرجعون﴾[1]، جمع أمكنة وأماكن، توهموا الميم أصلا حتى قالوا: تمكن في المكان، وهذا كما قالوا في تكسير المسيل أمسلة، وقيل الميم في المكان أصل كأنه من التمكن دون الكون"[2]. والمكان عنصر أساس في البناء السردي، إذ يساهم في تحديد معالم الشخصيات، ويدلل على موقعة الحدث وفق السيرورة الزمنية، لأنه الهيكل الذي ترتكز عليه باقي العناصر السردية، وتخضع البنية المكانية في الدرس السيميائي إلى تقسيمين هامين هما: الانفتاح والانغلاق.

3. البنية المكانية بين الانفتاح والانغلاق

3-1- الأماكن المفتوحة:

تشكل الأماكن المفتوحة في العمل السردي منعرجا هاما في تعاقب الأحداث لتصبح - أحيانا- هدفا رئيسا يرمي إليه الروائي، لما لها من علامات ورموز، كونها تتجاوز كل ما هو مقيد و مغلق إلى التحرر والاتساع، و"نقصد هنا بانفتاح الحيز المكاني، احتضانه لنوعيات مختلفة من البشر وأشكال متنوعة من الأحداث الروائية، وتتصل هذه الأماكن المفتوحة عبر فضاءات محدودة وغير محدودة كالبحر والغابة والصحراء والشوارع والجسور وهي بدورها توحي بالحرية والانطلاق والانسجام مع الذات"[3]، وسر هذا التحرر أنها لم تتعرض

لأي تشكيل إنساني، أو إضافة مادية.كما أن الفضاء المفتوح في الرواية هو متنفس الشخصيات، إذ يسمح لها بخوض مغامرات، والتعبير عن أفكارها دون قيد، فالروائي يخضع الشخصية للمكان، وليس العكس وهذا ما أشار إليه "غريماس" في تحليل الخطاطة السردية في الدرس النظري ليصبح المكان (المساعد) الذي يهيئ الظروف لتحرر الشخصية وانتقالها إلى (الموضوع)، وقد وظف "علاء الأسواني" الفضاء المفتوح أو اللامحدود، ليدل على الحركية والانطلاق، لأن "الأماكن المفتوحة هي مسرح لحركة الأشخاص وتنقلاتهم"[4]، كالمدينة، والقرية، والحقل وغيرها، و من أكثر الأماكن المفتوحة حضورا:

أ- المدينة:

المدينة نمط اجتماعي يخضع لنظام موحد، يحترم فيه القانون، وتغلب المصلحة العامة، كما أنها ملتقى التنوع الأيديولوجي والثقافي للطبقات السكانية مع تحقيق عملية التواصل بين الذوات الفاعلة، كما أنها "مكان النشاطات الاجتماعية المتداخلة والاتصالات ومركز الخلق والإبداع حيث تلتقي الفرص لتهيأ ظروف التقدم"[5]، وبذلك تأخذ البنية المكانية اللامحدودة بعدا رمزيا يتمايز من عمل سردي إلى آخر ويختلف باختلاف المواقف النفسية وقد ركزت الرواية على الكثير من الأماكن المفتوحة لشهرتها التاريخية والحضارية، فهي تمثل دلالة سيميائية في نفسية القارئ لما لها من زخم في الأعمال السردية مثل:

ب- شيكاغوChicago:

اسم مدينة تقع بالولايات المتحدة الأمريكية(USA)، تعد من أهم المدن العالمية اقتصاديا، كما تعتبر مدينة سياحية بامتياز، و ترجع التسمية إلى لغة "الأنجولوكي" الخاصة بالهنود الحمر، السكان الأصليون لهذه المدينة، وشيكاغو سيميائيا تعني: الرائحة النفاذة: أو الرائحة القوية، كما توحي إلى التقدم والرقي "والسبب في هذه التسمية أن المكان الذي تشغله المدينة اليوم، كان في الأصل حقولا شاسعة خصصها الهنود الحمر لزراعة البصل، الذي تسببت رائحته النفاذة في هذا الاسم"[6] فالمدينة سيميائيا، وعلى مستوى التحليل السانكروني هو انتقال البطلة "شيماء محمدي" لنيل الشهادة من مصر إلى

أمريكا (بنية سطحية)، لكن على المستوى الدياكروني هو التنقل بين ثنائيات ضدية يسميها "غريماس" أقطاب السيميائية:

(ظلام ⟵ نور) ، (تخلف ⟵ تقدم)، (نظام مستبد(فاسد) ⟵ حرية)...

أي الانتقال من أغلال العادات والتقاليد البالية المكبلة للحريات الشخصية، والنظام الفاسد إلى العدالة الاجتماعية والتحرر.

فتوظيف المكان المفتوح ليس اعتباطا، وإنما يمنح الشخصيات مساحة كافية لإبداء الرأي، وتحقيق الرغبات، فمدينة "شيكاغو" كانت نقطة البداية لأبطال الرواية [شيماء مجدي وطارق حسيب] حيث وجد تلك المساحة من التحرر في هذا الفضاء الذي يتميز بالانفتاح الحضاري والمادي، فقد أعلنها الأسواني صراحة بقوله على لسان إحدى الشخصيات المهمة: "نحن الموقعون أدناه المصريون المقيمون في مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة، نشعر بقلق بالغ لما آلت إليه الأوضاع في مصر من فقر وبطالة وفساد وديون داخلية وخارجية ، نحن نؤمن أنّ بلادنا تستحق نظاما سياسيا ديمقراطيا[7].

اختلاف النظامين السياسيين المصري والأمريكي، يعبر سيميائيا عن القيمة المتدنية للفرد العربي، وتلك النفسية المحطمة رغم مظهر التعالي الذي تبرزه تلك الشخصيات المرموقة في العمل الروائي. فيلحظ القارئ من خلال مقارنته للبنية المكانية، أنّ مصر(القاهرة) تمثل ذلك الضيق، والازدحام، والتوتر، إلى شساعة المدن الأمريكية(شيكاغو واشنطن...) "فلم تمض أعوام قليلة حتى عادت شيكاغو أجمل وأقوى مما كانت وتوجت إلى الأبد كأهم مدينة في الغرب"[8]. استطاع "علاء الأسواني" بتوظيفه لبنية الحيز المفتوح، أن يلج العمق النفسي لشخصياته، التي تعيش ذلك الصراع الرهيب بين ظاهر يبدو سليما ومتزنا (أخلاق عالية تدين، أمانة...) كقوله: "عندما تقدم الدكتور أحمد دنانة لخطبة الآنسة مروة نوفل بدا بكل المقاييس عريسا ممتازا: متدين بدليل علامة الصلاة التي على جبينه والمسبحة في يده واستشهاده الدائم بالقرآن والحديث وحرصه الدائم على أداء الصلاة في أوقاتها"[9]، ولكن في الباطن تعاني الشخصيات رغبات مكبوتة،

وعقد نفسية ما كانت لتبرز لولا رحابة هذا الفضاء، حيث يقول: "في لحظات أحضر دنانة مكعبات الثلج وكأسا كبيرة، وقال صفوت وهو يصب الويسكي بلهجة متعذرة: اكتسبت هذه العادة بسبب إقامتي الطويلة في الغرب"[10]، هذا"التضاد" بين ثنائية (الحلال، والحرام) تبرز الصراع الداخلي المضطرب لتلك الشخصية التي فرت من الظلم والكبت إلى التحرر والانطلاق، ولكنها ما تزال تعيش في تلك الدوامة النفسية وعدم الاتزان.

ج- **القاهرة** (CAIRO):

عاصمة الدولة المصرية؛ وإحدى أهم مدنها، اختلفت الأقاويل حول تسميتها بهذا الاسم، بحيث يُطلق عليها عدة تسميات منها: مدينة الألف مئذنة، وقاهرة المعز، ومصر المحروسة، كما يرجع سبب تسميتها بذلك تبركا بكوكب المريخ الذي يُعرف بالكوكب القاهر حيث يُعد هذا الرأي الأكثر شيوعا عند المؤرخين، وبعض الناس يزعم أن "القاهرة" سميت باسم قبة في قصور الفاطميين تسمى القاهرة، وهي موجودة إلى الآن[11]، اسم القاهرة فونيميا يتكون من مقطعين: (كه، رع)، وسيميائيا تعني مدينة الإله، وهذه الإحالة تضفي على العمل الروائي نوعا من القدسية، لأنها تحرك طاقة انفعالية في المتلقي فاسم القاهرة يوظف في أكثر الأعمال الروائية العربية، فهي النماء والأصالة والتاريخ وهي الاكتظاظ، والقمع والحدّ من الحريات، وصعوبة العيش، والطبقية...وغيرها

لكن المتعمق في مقاربة الأعمال السردية، يلحظ ذلك التناقض الصارخ في توظيف الدلالة السيميائية للقاهرة فهي القداسة والطهر والحنين، وهي النظام المستبد والاكتظاظ وسوء العيش، وهذا ما أشار إليه غريماس الثابت والمتحول، بحيث تبقى قدسية المكان ثابتة في النفوس بينما تتحول التقسيمات البشرية من عصر إلى آخر.

وهي كبنية مكانية مفتوحة تنتمي إلى عالم يختلف عقائديا(الدين)، ومعماريا(الهندسة) عن العام الآخر(أمريكا)، يذكرها الروائي كنقطة تمفصل بين الحقيقة و الحلم ومحور تناظر بين القبل والبعد (Avant-Après)،حيث يلعب ذلك التقابل دور مهما في الممارسة التنقلية ذات الاتجاه الواحد وعلى المستوى الأفقي، رغم أن بعض

الشخصيات تُظهر رغبها في العودة إلى المحروسة(مصر) مثل(شيماء)، ولكن الخطاطة السردية تبين عدم تحقيق رغبتها بحيث يضل الوضع على حاله، في حين أن الشخصيات الأخرى آثرت البقاء، رغم أنها تحن إلى مسقط الرأس بعدما داهمها خريف العمر.

يعبّر المكان المفتوح عن تحرر الشخصية وتنقلها وفق أحداث العمل السردي بكل أريحية، ولكن في أحايين كثيرة تصطدم بالواقع المتموضع من خلال السيرورة السردية فيتكون ذلك "التشاكل"(isotopie) الذي أورده "غريماس" في تقسيماته في التحليل السردي حيث تظهر الشخصية عكس ما تخفي، "كان هناك ألف شاب يتمنون مكانك في كلية الطب، والآن تريد أن تترك مصر وتذهب إلى أمريكا التي تسببت في كل مصائبنا.."[12] ،كما أشارت الرواية إلى العديد من البنى اللا محدودة والمختلفة هندسيا

واجتماعيا وحتى ثقافيا كالمدن والقرى، الحقول والمزارع وكذلك الشوارع، فهي وسيلة الكاتب التي تدل على قدرة تنقل الشخصية، وتحررها من العالم المحدود إلى العالم الواسع، إذ تمارس أحداثها دون تأثير سلطوي يحد من فعلها، كما تعبّر عن ذلك المسار الذي تحاول الشخصية تتبعه للانتقال من الثابت والساكن (الهدوء النفسي، هدوء الحيز المكاني، الخلية العمرانية المتماسكة...) إلى العالم الدينامي المبهر (الحركة المستمرة، الضجيج، الأضواء المتحركة والكاشفة، الأزمات النفسية، الاغتراب، تعدد الأجناس...)، ومن أبرز الأماكن المفتوحة التي خصها الروائي بكثير من الوصف لينقل صورة متكاملة للقارئ، فيجعله يعايش ذلك المكان بلغة واصفة وتشويق مدهش، نذكر:

د- القرية:

يَرد هذا الفضاء في معظم الأعمال السردية لما يكتسيه من أهمية في تفاعل الشخصيات وانفعالاتها، يوظفه الأسواني ليمنح ذلك الشعور بالتحرر من زيف التحضر المبالغ فيه، والانطلاق إلى رحابة المكان الذي يشمل الأهل والجيران، وأبناء البلد الذين يتقاسمون الأفراح و الأقراح، و"القرية ظلت تحتل في الرواية العربية مكانا رفيعا في

جماليات المكان، وأن الغالبية العظمى من الروائيين العرب قد ولدوا و نشأوا في قرى متفرقة من الريف العربي، فعايشوا هذا الريف وخبروه"[13].

فالقرية تمنح الشعور بالتواصل و الانتماء، وتبعث على الطمأنينة والهدوء في نفوس منتسبيها، كما تدل على الطهر والعفاف، وعذرية الفضاء لأنها "الرمز الأكبر للطبيعة حيث من بين دلالاتها أنها تمثل الأرض، فمنها تستمد هذه الخلية العمرانية طيبتها فالأرض عامل أمن وأمان"[14] وهذا ما يلاحظ على شخصية "أحمد دنانة" الذي يأخذه الحنين إلى شبابه، وإلى تلك الأمكنة التي "كان يتريض بها ساعة العصارى على السكة الزراعية في قرية الشهدا بمحافظة المنوفية موطنه الأصلي..."[15].

تعمد الروائي ذكر اسم القرية ليس اعتباطا، فهو يملك من الدلالات الكثير، فكل اسم حيز هو في الحقيقة حكاية تختفي في ثناياها أحداث ومشاهد ترسخت في مخيلة الأديب فإذا ذكر الفضاء اللا متناهي فهو بحث عن التحرر والعودة إلى أيام الصبا والعفوية، دون تكلف ولا تصنع، لهذا السبب تتعلق الشخصية بالمكان، وتربط به دائما تلك الذكريات الجميلة.

وكذلك انتقال بطلة الرواية "شيماء محمدي" من دفء المكان الذي ترعرعت فيه، إلى زخم المدينة الكبيرة، هي صورة سيميائية تضادية من منظور غريماس س1: مسقط رأس شيماء يتسم بالهدوء، والعفة والتواصل وهو خلية واحدة-----س2: انتقالها من الريف الهادئ (ثابت) إلى أمريكا ذات الحركة التي لا تهدأ ليلا ونهارا وفق دينامية تصاعدية (متحول)، هذا الانتقال من الثبات إلى التحول ما هو إلا نظام دلالي يرصد الظواهر الاجتماعية والثقافية للشخصية وأفعالها[16]، وهذا ما يبرزه الأسواني في قوله:"من أين لشيماء محمدي أن تعرف كل هذا التاريخ وقد قضت حياتها كلها في طنطا، لم تغادرها إلا مرات نادرة...جاءت شيماء إلى شيكاجو هكذا مرة واحدة، دون استعداد أو تمهيد كمن قفز في البحر بملابسه الكاملة وهو لا يعرف السباحة...ما الذي أتى بهذه الفتاة الريفية إلى أمريكا؟"[17]، وكذلك تلك الإشارة ذات المدلول السيميائي عند سرد تلك الحادثة التي وقعت

في مطار "أوهير" حيث ارتباك الشخصية يدل على انبهارها، وخوفها من هذا المكان الغريب عن طبيعتها المسالمة و الهادئة فقد "وقفت شيماء على السير المتحرك، ومعها حقيبتها المكتوب عليها اسمها بالكامل وعنوانها بطنطا بالحبر الشيني على طريقة الريفيين[18] إن تحول دلالة الفضاء من طرف الشخصية بفعل تحقيق الرغبة (الدراسة في جامعة أمريكية)، هو متنفس لكبت، وبالمقابل هو لوعة للماضي في ظل هذه المدنية التي أفقدت الإنسان إنسانيته، لأن المكان نظام مشفر يحتاج إلى تأويل لاحتوائه على إيحاءات تعبيرية. وكذلك من ناحية التوظيف الفونيمي الذي تعمده "علاء الأسواني" لاسم البطلة نلحظ بوضوح (شيماء=اسم أخت النبي ﷺ، ومحمدي= هو إحالة على اسم محمد عليه السلام)، فالدلالات لا يمكن الكشف عنها إلا بالحفر للوصول إلى البنية العميقة.

هـ- الشارع:

بنية مكانية تختلف اتساعا وضيقا، وتحتل هذه البنية قيمة سردية مثلى في الأعمال الأدبية بحيث لا يكاد يخلو عمل إبداعي منها، فالشارع هو المكان" الذي يلتقي فيه الناس جميعا في أية ساعة ليلا ونهارا، ومهما كانت منازلهم الاجتماعية ومهنهم وأعمارهم وانتماءاتهم وشتى عوامل اختلافهم، فهو بالتالي أهم معرض لشبكة العلاقات والوظائف التي تبنى عليها ثنائية الأنا والآخر التي تمثل العمود الفقري للمعيش اليومي[19]

فهذا الحيز يجمع بين الغني والفقير، والكبير والصغير فيه مساحة من الحرية الشخصية غير أنها تتقيد عند المساس بحرية الجماعة، فالشارع الضيق المليء بالسكنات الهشة والمقاهي التقليدية، البيوت المتهالكة، فيه من عبق التاريخ و جمالية التراث ما يجعل من الشخصية الفاعلة تنطق بالحكمة، وتخشى الزلل، وتتشبث بالعادات والتقاليد، وهذا يبدو جليا في عادات شخصيات الرواية' "شيماء محمدي" و"طارق حسيب" حيث كانا محافظين جدا، وملتزمين دينيا قبل الانتقال من مكان مسقط الرأس (مصر) إلى مكان الدراسة والتحول الفكري والمعيشي (أمريكا)،" رأت شوارع فسيحة إلى درجة لم تتخيل وجودها قط"[20] فالمكان الأول ظلت الشخصية محافظة فيه على القيم والمبادئ الأخلاقية،

ليجبرها المكان الثاني بفتنته واتساعه المبهر لتقترف خطيئة الحمل سفاحا من طارق، من هنا تتجلى لنا قدرة تأثير البنية المكانية في الشخصية، هذا ما أشار إليه "بروب" في "موفولوجية الحكاية العجيبة"(1929)[21] حيث استخلص إمكانية خضوع الشخصيات في تصرفاتها وأفعالها إلى استراتيجية المكان وهيمنته على المسار السردي.

فالبنية المكانية عندما توظف في السرد لابد أن "تتكون من أحداث تكون نتيجتها في صالح البطل، وأخرى ضده، والفرق بين الجزئيات الايجابية والجزئيات السلبية يؤثر في سير القصة وهدفها النهائي"[22]، فانسلاخ الإنسان من مكانه قسرا يؤدي إلى خلل في إيقاع نظامه الذي تعود عليه، وهذا راجع لقدسية العلاقة بينهما، ولذلك كثيرا ما يركز النقاد على هندسة المكان و مساحته و جغرافيته، بحيث يصبح هو المتحكم في فعل الشخصية، وهذا ما أشار إليه غريماس في نظريته السيميائية التي تنطلق من دلالية المكان للتأثير في عميلة الفعل المنوط بالفاعل[23].

لكن هذا الطرح لا يعني بالضرورة صوابه دائما، ففي بعض الأحيان المكان المفتوح لا يعبر عن الانطلاق و التحرر، بل يعبر على الاستياء وقلق الشخصية عند التحول من مكان غريب رغم انفتاحه "أحست في تلك اللحظة بأنها غريبة و وحيدة وضائعة كأنها قشة تتلاعب بها أمواج محيط هادر، تملكها خوف سرعان ما تحول إلى مغص يقرص أحشاءها كأنها طفل ضاع من أمه في زحام السيد البدوي"[24].

وهذا ما أشار إليه الناقد "آلان روب" في تطرقه للبنية المكانية قائلا "هناك أشخاص تربطهم علاقة حميمة و جذب لمكان معين يجد فيه ذاته دون سواه، وبالمقابل يوجد من يكره و ينفر من مكان معين لأنه يذكره بحادث أو موقف مؤلم، فهو يحمل ذكريات محزنه تثير شعوره"[25]

3-2-الأماكن المغلقة:

تتنقل الشخصيات الروائية بين انفتاح المكان و انغلاقه بحسب أفعالها ووظائفها، لذلك تعتبر "الأماكن المغلقة أماكن محددة بواسطة أبعاد معلومة و هي ترمز للنفي والعزلة

والكبت، إذ الانغلاق في مكان واحد تعبير عن العجز و عدم القدرة على الفعل أو التفاعل مع العالم الخارجي، وهي توحي بالعزلة و الخصوصية"[26]، وإذا كانت الروايات تجعل من هذه الأمكنة ركيزتها الأساسية، فذلك لأهميتها في دور العملية السردية، لأن الأماكن المغلقة كالبيت أو الحجرة أو الغرفة في شكلها الهندسي هي عبارة عن قوالب تأوي إليها الشخصيات الفاعلة لذلك وردت "رواية شيكاجو" محملة بشتى أنواع الأماكن المغلقة، إذ لا يكاد يخلو مشهد من توظيف للبنية المكانية، لتعبر سيميائيا عن امتعاض وكبت نفسي، وغرابة الأحداث المتلاحقة، مع غربة الابتعاد عن الوطن والفقد.

"والحق أن الضغوط النفسية التي عانت منها بسبب التأخر في الزواج كانت سببا مباشرا في سفرها إلى أمريكا، وكأنما تهرب من وضعها أو تؤجل مواجهة الحقيقة"[27] فالعامل النفسي له أهمية بالغة في علاقته بالمكان سواء المفتوح أو المغلق، ويؤثر في مسارات الأحداث المتعاقبة في حيثيات الأعمال السردية، وأفعال الشخصيات، ومن أبرز الأماكن نذكر:

أ-الحجرة (الشقة):

حيز مغلق تمارس فيه الشخصية حياتها الطبيعية (تستريح، ترقص، تغني، تبكي...) يتولد فيها جانب من التصابي، والتحرر، وتفريغ تلك الشحنات النفسية، "هكذا قالت متشيل ضاحكة وهي تجذب رأفت من يده إلى ركن الحجرة"[28]، لقد عبرت الحجرة عن سعادة عارمة ولهيب عاطفي بين "متشيل" و"رأفت"، لأنه بمجرد ذكر الغرفة أو الحجرة يفهم القارئ تلك اللحظات الحميمية التي تتستر عليها هاته البنية المغلقة.

ولكن الحجرة ليست دائما مكانا للمشاعر والمسرات، فهي أيضا تنغلق حتى تكاد تخنق من فيها، وتمارس طابعا عدوانيا يستبد بالشخصية لتصبح أشبه بالسجن "وفي الليل عندما تستلقي على الفراش في حجرتها الصغيرة الغارقة في ظلام ثقيل لا يخترقه سوى الضوء الأصفر الذي ينبعث من مصابيح الشارع عبر النافذة تتذكر شيماء بحزن أنها

ستنام وحدها في هذا المكان الموحش لأعوام قادمة، عندئذ يجتاحها شوق جارف إلى حجرتها وأختيها وأمها وكل الناس الذين تحبهم في طنطا[29]، هذا الحيز جمع بين السعادة والمأساة واستطاع أن ينحصر ضمن تقاطبية وظفها الكاتب بعناية بغية توظيف تلك المشاهد ونقلها إلى مخيلة القارئ بأدق التفاصيل، وتارة يصور لنا المكان المغلق كنقطة بداية لمغامرة بين العاشقين لا يريد كلا منهما أن تنتهي، فالشقق في السكن الجامعي، هي الحصن المنيع الذي تلجأ إليه الشخصية لتحقيق رغباتها المكبوتة "لا يمر يوم دون أن ينهل طارق حسيب من نبع السعادة...يرش من عطر"بينو سيلفستر" الغالي على رقبته و أعلى صدره، ثم يهرع خارجا من شقته يكاد يعدو و يقفز..يستقل المصعد إلى شقة شيماء"[30]. فالشقة كانت و ما تزال ذلك الحصن المغلق على تلك الطقوس التي تمارسها الشخصيات بكل أريحية، فهذه البنية المغلقة التي كانت يوما ما مكان نكد وشقاء، صارت اليوم مكانا للبهجة و السعادة، بعيدا عن أغلال التقاليد التي طالما كبلت الحبيبين.

ب- البيت:

البيت هو عالم الإنسان الأول، و يحمل العديد من الدلالات السيميائية، فهو يعبر عن مظاهر الحياة الداخلية، و كما يعطي للوجود قيمة و يوحي عند أكثر الناس بالدفء و الاستقرار و الأمان، فهو أيضا ينطوي على آهات، وآلام تعيشها الشخصية في صمت، لذلك "فقد يأخذ المكان أبعادا رمزية مختلفة من رواية إلى أخرى، ومن موقف نفسي لآخر"[31]، فالبيت الذي هو الحماية و الدفء، والأمان من المخاطر قد يتحول إلى حيز موحش يسبب الأرق و الشجون مثل الذي تعانيه شيماء، و هذا التناقض الصارخ هو مفهوم رمزي (Sens symbolique) لدلالة الانغلاق، ليتحول إلى انغلاق نفسي واضح، "فالبيت في الخطاب الروائي لم يعد ركنا من الجدران تزينه مجموعة من الأثاث(...) لقد أصبح البيت ذا دلالة تنطلق من زواياه لتدل على الإنسانية"[32].

جاء ذكر هذه البنية بعدة أوصاف كحتمية لسرد طرق عيش الشخصيات، كون بعضها تنعم براحة و رفاهية عارمة، و أخرى تعاني الاضطراب و الجوع العاطفي. فشيماء

كرهت البيت و الكلية، وقد أعلنت ذلك صراحة: "أشعر بأنني منبوذة في هذا البلد..الأمريكيون ينفرون مني لأنني عربية و محجبة، في المطار استجوبوني كأنني مجرمة، وفي الكلية بعض الطلبة يسخرون مني كلما رأوني"[33]، هذا الاستهزاء بشيماء ولد لديها كره البيت الذي تأوي إليه، أما طارق فإنه يحس بالأمان و الراحة كلما ولج بيته الصغير ليداعب ذلك الإحساس بالسعادة و حب التملك "عاد إلى شقته فوجد النور مضاء وكتاب الإحصاء مفتوحا و كوب الشاي في مكانه و البيجاما ملقاة على الفراش"[34] هذا التحرر الذي يصل إلى درجة الفوضى المحببة إليه لم يكن طارق ليمارس طقوسها لولا هذا الحيز الذي يستر كل حسناته و سيئاته. كما نجد حديث الروائي عن المسجد و الكنيسة، حيث عبر عن مدى الاهتمام بالجانب الديني الذي يبقى المرجع، و الحل للأزمات النفسية التي تعيشها الشخصيات، والتي تلجأ إليها وقت الشدة "أبشركم يا إخوان بخبر سيفرحكم جميعا إن شاء الله، بالأمس وافقت بلدية شيكاجو على تخصيص مبنى كبير من أربعة أدوار في أفخم مكان في المدينة ميتشجن أفنيو، ليكون مسجدا و مركزا إسلاميا إن شاء الله"[35]. كما وظف الأسواني دور التعليم من مدرسة، و كلية، و جامعة لينقل الأحداث التي تجري فيها معبرا عن طبقة هامة من المجتمع، واصفا بكل صدق تلك العلاقات التي تجمع الطلبة مهما كان انتماؤهم العرقي والسياسي، والتي تتراوح بين المصلحة و الزمالة علاقات الهوى و الحب، داخل الجامعة وخارجها، و بكل حرية، ليدخل الأسواني في مقارنة بين جامعة مصر وجامعة شيكاغو، مبرزا تلك السماحة التي يتمتع بها الأساتذة في أمريكا، بخلاف ذلك الجفاء، و الخشونة التي يتلقاها الطالب المصري، و الذي يمكن فصله بطرق عديدة إذا تبين انتماءه لحزب لا يرضي النظام، كما حدث مع الطالب "ناجي عبد الصمد" قسم ماجستير الوحيد من بين المصريين المبعوثين، يهتم بالسياسة و ينادي بالديمقراطية، ويطالب بالإصلاح السياسي، مرجعا تخلف مصر إلى الديكتاتورية، وقد جر عليه موقفه الكثير من المشاكل وكاد يحرم من البعثة رغم تفوقه الدائم.

ج- الجامعة:

من الأماكن التي تتطرق إليها الأعمال السردية بكثرة، لأنها تعتبر مدينة علمية، ومجتمع مصغر يحوي العديد من شرائح المجتمع، فهي مؤسسة للتعليم العالي و البحث العلمي، تمنح شهادات لخرجيها، و باعتبارها بنية مكانية مغلقة، فهي تحتوي على العديد من الأسرار، كنظام هندسي مقنن و محكم لا يعلم قوانينه إلا من يعيش داخله، فهذا الحيز مليء بالقصص، و المغامرات، و تفريغ الكبت النفسي الذي تعاني منه المجتمعات الكبرى.

ولولا هذا المكان المغلق لما تعرفت "شيماء" على "طارق"، و لما تزوج "محمد صلاح" "كريست"، حتى شخصية "أحمد دنانة" اكتسبت هيبتها من الجامعة بحصولها على ترقية رئيس اتحاد الدارسين المصريين، كما لم يكن بمقدور الثائر "ناجي عبد الصمد" أن يحب اليهودية "ويندي شور"، وهنا إشارة رمزية من الأديب إلى إمكانية تعايش الأديان في سلام فهذه البنية المغلقة تضم معظم الأديان (الإسلام، المسيحية، اليهودية)، فوردت أسماء لها دلالاتها السيميائية (المسجد، الكنيسة، الدير، المعبد، إمام الأزهر، الأب بطرس، الراهب القداس...) و غيرها من الإيحاءات التي جعلت هذا العمل يترجم إلى العديد من اللغات وينال شهرة عالمية.

كما ساهم هذا المكان في خلق علاقات بين معظم شخصيات الرواية، إذ يرمز إلى الخصوصية، و الانغلاق (هندسيا، واجتماعيا، ونفسيا)، و في الوقت نفسه يمنح حرية مطلقة في انجذاب تلك الشخصيات المثقفة إلى بعضها، بعيدا عن أية ضغوطات كتلك التي تمارس خارج الحرم الجامعي، كالعنصرية، و التمييز العرقي، و الانتساب الديني، إن تأثير هذه البنى المغلقة في الشخصيات لها رمزية وظيفية حيث تخضع أفعالها ضمن إطار محدد.

4-علاقة المكان بالوصف السردي:

للمكان علاقة مهمة بعملية التوظيف، فهي وسيلة الأديب إلى حس القارئ، بحيث تجعله يستشعر التشويق و الحرارة و العاطفة، و قد أتقن "بلزاك" ذلك في العديد من أعماله إذ يعتبر أول من أولى الوصف اهتماما كبيرا، حيث "امتلأت رواياته بالبيوت و الأثاث

و الملابس الموصوفة بدقة، أرادها الكاتب أن تكون ديكورا و إطارا للأحداث يعكس المكان الواقعي داخل النص"[36]، و هذا ما عمد إليه الروائي"علاء الأسواني" حيث يصف الأشياء بأدق التفاصيل فيصف الأمكنة بإسهاب، ناقلا للمتلقي صورة سيميائية يستشعر من خلالها بمعايشته لذلك الفضاء، فيصف جامعة "إلينوي" بقوله: "من أكبر الجامعات في الولايات المتحدة، و تنقسم إلى قسمين المركز الطبي في غرب شيكاجو الذي يضم الكليات الطبية، أما الكليات غير الطبية فتقع في وسط المدينة. بدأ المركز الطبي في عام 1890 بإمكانات ضئيلة ثم تطور و اتسع بسرعة فائقة ككل شيء في شيكاجو، حتى أصبح مدينة شاسعة مستقلة مساحتها 30 أكرى (نحو مليون وثلث كيلو متر مربع)..."[37] ويستمر الوصف حتى يدخل إلى بعض الأمور الهندسية، ثم ينتقل إلى أمور علمية دقيقة يصعب فهمها على القارئ ذي الثقافة المحدودة، بل نستشعر أن الأسواني يكتب للنخبة المثقفة بهذا الوصف المبالغ فيه مع تردد مصطلحات علمية دقيقة منها الطبية، و التقنية غاية في الخصوصية تدل على تخصص الأديب كونه طبيب أسنان، و على دراية بمجال الطب والأمور الهندسية، لذلك وصفها بكل سلاسة و دقة.

يلعب الوصف "دورا هاما إلى جانب المكان في المسار السردي و إتمامه على أكمل وجه، حيث تؤدي الوصوف دورا أساسيا في تطوير الحدث لأنها النوافذ التي يرشح منها الفكر، و يلحظ ذلك بدقة خلال التكرارات المؤكدة"[38]، و هنا تبرز أهمية الوصف في المسار السردي موازاة مع قيمة البنية المكانية مشكلة تأثيرا فعالا في الذات المتلقية، "ندى الصغرى معينة في قسم الاتصالات بكلية الهندسة"[39]، "العالم الإيطالي العظيم مارشيللو مالبيجي (1628-1694) مؤسس علم الهيستولوجي.. هو الذي بدأ و نحن هنا لنكمل العمل"[40] كما يمعن في الوصف العلمي المتخصص قائلا: "الهيستولوجي كلمة لاتينية معناها علم الأنسجة، العلم الذي يستعمل الميكروسكوب في دراسة الأنسجة الحية..و هو يشكل أساس الطب"[41] و إذا كان الوصف "دعامة أساسية من الدعامات التي تقوم بواسطتها المشاهد المكانية في الرواية لتعرض أمام القارئ، وهو أداة فاعلة في التعريف بالمكان

واستقصاء جوهره وتجسيد عمقه الحضاري"[42]، فقد حمل زخم الكلاسيكيات المعجمية التي ساهمت في ربط العلاقة الوظيفية بين المصطلح الطبي، وبين اللغة السردية الواصفة في تناغم لا يشعر القارئ من خلاله بغرابة الألفاظ، أو بخروج الوصف عن المشهد الدرامي.

-خاتمة5

من خلال تلك المكانة التي يحتلها المكان داخل النسيج الروائي صغنا بعض النتائج التي تحصلنا عليها، أوردناها على شكل نقاط مبسطة كما يلي:

ـ تعدد التشكيلات المكانية في الرواية، منح الشخصيات حرية كبيرة في تنقلاتهم وأفعالهم.

ـ أهمية العلاقة بين البنيات المكانية والوصف السردي كونه أحد مقومات الحكي وكذلك علاقة المكان بالشخصية السردية (علاقة تأثر وتأثير).

ـ مدى تأثير الفضاء المكاني في سيرورة الأحداث على مستوى المسار السردي، لما يحمله دلائل ورموز لا يمكن اكتشافها إلا بدراسة سيميائية معمقة تفضي إلى نتائج مرجوة.

البنية السطحية مجرد قوالب لغوية مرصوفة، ولكنها تحمل في ثناياها بنية عميقة تحمل قيمة رمزية (Symbolique).

ـ وظف الأسواني في روايته الكثير من المفردات العلمية والتكنولوجية، قد يستغلق فهمها على القارئ الذي لا يملك زاد ثقافي.

- حملت الرواية كما هائلا من الرسائل المشفرة (الدين، الجنس، التمييز العرقي، النظام السياسي الجائر...) كلها إيحاءات سيميائية تحتاج إلى جهود بحثية متواصلة.

*** *** ***

الهوامش

1 يس، الآية67

2 مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر للطباعة والتوزيع، مجلد18،د ط بيروت، لبنان، 1994، ص487-488

3 عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ، 1994، ص148.

4 الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، ط1، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن، 2010، ص244.

5 حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، 1990، ص79.

6 علاء الأسواني، رواية شيكاغو، ،دار الشروق ، ط1، مصر، 2007 ، ص7 .

7 الرواية، ص320

8 الرواية، ص12.

9 الرواية، ص95 .

10 الرواية، ص111 .

11 ينظر: جمال الدين محمد بن محمد، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تح: كامل المهندس ومصطفى السقا، د ط، وزارة الثقافة، القاهرة، مصر، ، 1969، ص181.

12 الرواية: ص 120.

13 شاكر النابلسي، جمالية المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1،بيروت، لبنان، 1994، ص4.

14 ينظر: عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربية، الصورة والدلالة، دار محمد علي، منوبة، ط1، تونس، 2003.

15 الرواية، ص66

16 ينظر: لخضر العرابي، المدارس النقدية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، د ط، 2007، ص 17.

17 الرواية، ص13.

18 الرواية، ص17

19 عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربية، المصدر السابق، ص91.

20 الرواية، ص17.

21 ينظر: حشلافي لخضر، السيميائيات السردية من فلاديمير بروب إلى غريماس، جامعة الجلفة، مجلة جامعة ورقلة الجزائر العدد 9، 2015، ص 13.

22 يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، تر: سيزا القاسم ضمن كتاب (جماليات المكان) مجموعة من المؤلفين، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1988، ص18.

23 ينظر: محمد ناصر العجيمي، في الخطاب السردي-نظرية غريماس-، الدار العربية للكتاب، ط1، تونس، 1991، ص112.

24 الرواية، ص18.

25 آلان روب غرييه، نحو رواية جديدة، تر: مصطفى إبراهيم، دار المعارف، د ط، د ت، ص930، نقلا عن: آمنة عبد الجليل، رسالة للدراسات العليا، بعنوان (جماليات الوصف في روايات سليمان القوابعة، جامعة مؤتة، الأردن، 2014.

26عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1الجزائر ،1994 ص146- 146.

27 الرواية، ص16.

28 الرواية، ص48

29 الرواية، ص18.

30 الرواية، ص342.

31 فتيحة كحلوش، بلاغة المكان، قراءة في أمكنة النص الشعري، مؤسسة الانتشار العربي،ط1، 2008، ص23،

32 شريف حبيلة، الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص205

33 الرواية، ص82.

34 الرواية، ص82.

35 الرواية، ص69.

36 الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص167.

37 الرواية، ص22.

38 زياد مغامس، مظاهر أسلوبية في رواية "جسر بنات يعقوب" لحسن حميد، مجلة البيان، العدد389، 2002، ص66.

39 الرواية، ص14.

40 الرواية، ص23.

41 الرواية، ص23.

42 جوادي هنية، صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب واللغة العربية، تخصص أدب جزائري، 2012-2013، ص101.